▫ ثانيا:
البنية المجتمعية المفسرة وخطاب القومية

1/ 1/ 1*تولدت «الميلودراما» والرومانسية في السياق التاريخي نفسه الـذي تطورت خلاله الطبقة البرجوازية، عبر صراعها مع الطبقـة الأرسـتقراطية السـائدة علي المستوى الاجتماعي والسياسي، من ناحية، ومـع النظريـة الكلاسـيكية عـلي مستوى الإبداع الفنـي والأدبـي مـن ناحيـة ثانيـة، ممـا يفسـر وجـود الكثيـر مـن المتشابهات بين النوعين، واختلافات دقيقة في الوقت نفسه بينهمـا. وفي ظـل هـذا الصراع حدثت تغيرات كيفية متتابعة ومطردة في جمهور السوق الفنـي، منـذ بدايـة القرن الثامن عشر، فمع تدهور أوضاع الطبقة الأرستقراطية الاقتصـادية، قصَّـرت بالتبعية دون رعاية الفنانين والأدباء، وتـركتهم لأقـدارهم في السـوق وآلياتـه. وفي المقابل راحت تهيمن الطبقة البرجوازية، علي السوق نفسه، بذائقتها واحتياجاتهـا، باعتبارها أقدر علي الإنفاق. وبلغ الصراع الطبقي ذروته في الربع الأخير من القرن الثامن عشر بثورة الاستقلال الأمريكية عن التاج البريطاني سنة 1776، وفي قلـب أوروبا بالثورة الفرنسية 1789، مما خلخل النظم الملكية ووجـه ضـربة موجعـة للأرستقراطية، لم تستطع بعدها أن تستعيد مكانتها أبدا، وامتدت آثـار الثـورتين إلي كافة أنحاء أوروبا، فكانت مرحلة مفصلية في مسار التاريخ.

1/ 1/ 2*وكان منطقيا أن تتميز مرحلة المخاض الثوري الذي اكتسب طابعـا دمويا في أمريكا ثم في فرنسا، بخطيّ صعود وهبوط طبقي، وبينهما مساحة تقـاطع

وتداخل لا ريب فيها. فمن ناحية، كانت الأرستقراطية تفقد بأمرائها ونبلائها وملوكها مكانتها التي تتمثل في شرعية الحكم السياسي والسيادة الاجتماعية بالحق التاريخي المتوارث، أو تفقد ثرواتها، أو كلا المكانة والثروة، ولم يبق لها- بالتبعية- إلا أن تجتر ماضيها بشيء من الحنين إليه والحسرة عليه. ومن ناحية ثانية، أمكن للبرجوازية، وفي سياق تطورها الاقتصادي، توحيد كل الطبقات والشرائح الشعبية تحت جناحيها في اتجاه قفزتها التاريخية الكبرى نحو إزاحة الأرستقراطية ووضع لبنات الدولة القانونية الحديثة واعتماد الآليات الديمقراطية في تشكيل البرلمانات التشريعية، واختيار الحكومات. فلا غرو أن تتولد الرومانسية وقد انحاز كتابها غالبا ومن الناحية الأيديولوجية إلي الطبقة الأرستقراطية، فاستمدوا منها بطلهم، وكشفوا مأساة وجودها بين ماضيها وحاضرها، بينما استأثرت الميلودراما بالتعبير عن الطبقة البرجوازية، واستمدوا منها الأبطال، وعبروا عن أفكارها وقيمها، وسعوا إلي التواصل مع حلفائها الطبقيين، وبالتبعية تباينت رؤية العالم المطردة في النوعين، وإن كان هناك مساحة تداخل بينهما في السمات، نتيجة وحدة المناخ الفكري والسياق التاريخي.

1/ 2/ 1/ 1*وعلي أية حال وكما سبق أن ألمحنا في كتابنا (الفضيلة الغائبة) فإن الطبقة البرجوازية أحرزت مكاسب كبيرة في مجالات الاقتصاد المختلفة، بدءا من مرحلة كمونها في العقود الأخيرة من القرن السابع عشر(1). فقد هيمنت على نشاط التجارة في الداخل بين المقاطعات، وفي الخارج مع المستعمرات، التي راحت تعمل فيها منذ عصر النهضة وما رافقه من حركة كشوف جغرافية وتكوين المستعمرات وراء البحار. ومن ناحية ثانية سقطت بين يديها الأرض الزراعية تدريجيا، وكانت قاعدة الاقتصاد «للإقطاع- Feudality»، وذلك بتخلي الطبقة الأرستقراطية عنها وعن عقاراتها، إما بالرهن أو الاقتراض بضمانها أو بالبيع،

(1) د.سيد الإمام- الفضيلة الغائبة/ قراءة في نظريات دراما القرن الثامن عشر- القاهرة- مكتبة جزيرة الورد- 2016.

لحاجتها الملحة إلي المال للإيفاء بمتطلبات نمط حياتها الترفي غير المنتج، لأنها كانت تحتقر قيمة العمل، فلم تشأ أن تتابع أحوال أراضيها. ومن ناحية ثالثة، استثمرت البرجوازية التجارية أجزاء من رؤوس أموالها في تطوير المنشئات الحرفية، وتحويلها تدريجيا إلي مصانع ضخمة، فاستقطبت علي نحو متزايد عناصر من الفلاحين الهاربة من نير الإقطاع القديم ونموذج علاقاته الاجتماعية، وأعادت تأهيلها كعمالة صناعية. كما أبدلت نظام العمل من الإنتاج السلعي البسيط، إلي إنتاج لأجل السوق، مما أدى إلي طفرات متتابعة في الصناعة بزيادة حجم الطبقة العاملة وزيادة الإنتاج عن احتياج السوق الداخلي.

1/ 2/ 1/ 2*وترافق مع الخطى التي اتخذتها الطبقة البرجوازية في مجال التصنيع، عدة ابتكارات تكنولوجية هامة ولاسيما في إنجلترا: اكتشاف الآلة البخارية، صهر الحديد بفحم الكوك بدلا من الفحم الحجري، توليد الكهرباء التي صارت محور الحياة الصناعية، الأنوال الميكانيكية وإدخال تطور جوهري في صناعة الغزل والنسيج، وغير ذلك من الابتكارات متفاوتة الأهمية التي أنتجها لفيف من أبنائها وعلمائها، وتناول بالتغيير كل فروع الإنتاج الصناعي من الأزرار إلي السفن، فانتهي دور عضلات الإنسان وبدأ دور الآلة(1). وترافق هذا التطور- من ناحية رابعة- مع الدعوة إلي إنشاء البنوك كنظم مصرفية- مثل بنك لندن(2)- لتمويل الصناعات الضخمة، وتنظيم الاتجار المتشعب، حيث يعجز الفرد عن التمويل(3)، فالبنوك تيسر اختزان ونقل الثروة بشكل آمن بين فروعها الممكنة في أماكن مختلفة لتمويل الأنشطة الاقتصادية بما تستدعيه من سيولة متوافرة في الحساب أو قروض بفوائد.

(1) انظر:د.لويس عوض- مقدمة(شيللي- برومثيوس طليقا) - الهيئة المصرية العامة للكتاب- 1987- ص29،30

(2) انظر: د.لوليس عوض- مقدمة(شيللي- برومثيوس طليقا- ص7.

(3) د.لويس عوض- م.ن - ص30.

1/ 2/ 2/ 1* وتبع هيمنة البرجوازية العليا من أصحاب رؤوس الأموال وملاك وسائل الإنتاج، علي التجارة والزراعة والصناعة، أن ارتبطت بها مصالح قوى اجتماعية عديدة، تفككت أواصر علاقتها بالطبقة الأرستقراطية باطراد. فقد تخلقت طبقة عريضة في قاعدة البناء الاجتماعي من العمالة الزراعية والصناعية، وتبلورت شريحة وسطي من العلماء والمفكرين وأساتذة الجماعات بتنوع تخصصاتهم، ممن عرفوا بذوي الياقات البيضاء وكانوا «خبراء إداريين- bureaucrats» أو فنيين «تكنوقراط- Technocrats» في المنشآت الاقتصاد، للإشراف علي مراحل الإنتاج في المصنع والأرض، ومسار تصريف المنتج في الأسواق. وتبلورت شرائح البرجوازية الصغيرة- من ناحية ثالثة- من موظفين إداريين في الحكومة والمنشئات الاقتصادية، ومحاسبين، ومحامين ومهندسين..الخ، ممن يتطلبهم العمل في المجالات المختلفة، بالإضافة إلي صغار الملاك وبقايا أصحاب الورش من الحرفيين.

1/ 2/ 2/ 2* وتغير- في السياق نفسه- نموذج علاقات العمل الاجتماعية، وفق النظام الرأسمالي «Capitalism»، فتأسس مفهوم الأجر لقاء الجهد، واندثرت في المقابل علاقات العمل الإقطاعية «feudalism»، التي كانت تقوم على ملكية الرقبة أو «القنانة- slaves of lands». ولكن إن كانت البرجوازية حررت القاعدة الشعبية من القنانة أو العبودية، فهي لم تفعلها- فيما يرى «عوض»- حبا في العبيد، بل لأنهم أقل نفقة وأقل شكوى أمام الآلة، وطالبت بالتعليم العام لا حبا في الجماهير، ولكن لأن العامل الأمي قليل الإنتاج في المصنع، وان كان كثيره في الحقل(1).

2/ 1/ 1* وقد ترافق مع التطور الصاعد للبرجوازية العليا، وتنوع أنشطتها الاقتصادية، ازدهار المدن، وإضفاء طابع التحضر- Urbanism علي عواصم المقاطعات، وارتبطت بها قواعد من الجماهير وثيقة الصلة بها وبمصالحها من

(1) د.لويس عوض- م.ن- ص37.

الناحية الاقتصادية، وتدين لها بالولاء لاسيما مع تغيير علاقات العمل الاجتماعية، بما فكك- في الوقت نفسه- مفاصل النظام الإقطاعي، رغم أن جزءا من البرجوازية استهوته الأرستقراطية ونمط حياتها، وتصاهر أحيانا معها. ولا شك أن الإحساس المتنامي بنجاح الطبقة البرجوازية المطرد وقدرتها علي ربط مصالح الجماهير بها، ما دعا- علي مستوٍ آخر- مفكريها إلي الكشف مبكرا عن طموحها السياسي، وتأسيس الفلسفة التي تسوغ لها الإطاحة بالأرستقراطية وبمبدأ توريث الحكم. ففي مقالة بعنوان (مدى وهدف الحكومة المدنية) يرى الفيلسوف الإنجليزي «جون لوك / 1632- 1704» أن المرء يكتسب المعرفة بالعقل عن طريق التجربة، والناس بحكم قانون الطبيعة قد ولدوا أحرارا متساويين، وأنهم عن طريق العقد الاجتماعي يعهدون إلي الحكومة بتولي مقاليد السلطة، ومن ثمة فلا تملك الحكومة مطالبة الناس بالطاعة ما لم تكن برضاهم واختيارهم الحر. ويتأثر «جان جاك روسو/ 1712- 1778» بطرح «لوك» ويصدر كتابه (العقد الاجتماعي/ 1762)، مرتئيا أن العقد الاجتماعي مجموعة الشروط التي يتنازل بمقتضاها الأفراد عن جانب من حريتهم لمن يختارونهم للحكم، وتبقي شرعية الحكام مرهونة بالتزامهم بها، وتزول بإخلالهم بهذه الشروط نفسها (1). ويتطور الطموح البرجوازي في هذا الاتجاه إلي حد أن طالب مفكروها بحق التصويت العام، لا رغبة- فيما يري «عوض»- في رد الحقوق المدنية إلي الصعاليك، ولكن لتصل بأصواتهم للحكم من خلال البرلمان(2)، وتنفذ بالتبعية إلي سدة الحكم وسياسة البلاد. ومن هنا وبرغم وجود هذه الطبقة في

(1) انظر:لافرين، يانكو- الرومانتيكية والواقعية- ن:حلمي راغب حنا- الألف كتاب الثاني- الهيئة المصرية العامة للكتاب- ع187/ 1995- هامش ص17. وانظر: د.فيصل عباس- الموسوعة الفلسفية/ ج5- مركز الشرق الأوسط الثقافي- ص322.

(2) ومن هؤلاء المفكرين في انجلترا مثلا«وليم جودوين/ 1756-1836»الذي كتب«العدالة السياسية/ 1793»و«توم بين / 1737-1809» الذي كتب«حقوق الإنسان»1791»، انظر د.لويس عوض- م.ن- ص37، وراجع ص46..

تشكيل المجتمعات الأوروبية منذ النهضة، إلا أنها لم تنتصر في أكثر البلاد الأوروبية تطورا- فيما يري «بندولفي»- إلا بتحقيق سيطرتها النهائية علي الصناعة في النشاط الاجتماعي، وارتكزت في قواعد النجاح- أي الكسب- على فعالية الإنتاج، التي ارتكزت بدورها على المجابهة الدائمة مع الاقتصاد(1).

2/ 1/ 2* والواقع أن طموح البرجوازية إلي مقاعد التشريع وإدارة الدولاب الحكومي، استنادا إلي الانتخاب عبر قواعدها الجماهيرية، كان لحاجتها- من ناحية ثانية- إلي بنية قانونية تؤدي إلي تذويب الحدود المصطنعة تاريخيا بين أسواق المقاطعات، وخلق سوق قومية واحدة، لتصريف منتجاتها علي نطاق أوسع، والترويج لها والتشجيع علي استهلاكها، مما يضخ في زيادة الأرباح، وتراكم رؤوس الأموال، وإعادة تدويرها وتوسيع رقعة أنشطتها. وقد أعفي النبلاء أنفسهم في انجلترا من خطر العمل بالصناعة وبالتجارة، مما يسر عليهم إلغاء المكوس التي تعوق حرية التجارة بين المقاطعات فانتقلت السلع في أرجاء انجلترا و«اسكتلندا» و«ويلز» وكانت هذه الأقاليم - وفق «ديورانت- أوسع مناطق التجارة الحرة في غربي أوروبا. ولكن المكوس نفسها عرقلت سير التجارة الداخلية في فرنسا(2). وأدت هذه الحاجة- علي أية حال- إلي ازدهار الفكر القومي «nationality» الذي راح يبحث عن مقومات موضوعية مشتركة تجمع أبناء المقاطعات، تسوغ وحدتها ودمجها في سوق واحدة، وبديلا- في الوقت نفسه- عن وحدتها الرمزية تحت سلطة التاج.

2/ 2/ 1*وقد أسفر البحث عن مقومات القومية عن وحدة التاريخ والتحديات الماضية والممكنة في المستقبل، وحدة السلالة أو العرق، وحدة العقيدة الدينية بغض النظر عن الفوارق المذهبية، بشكل يقضي علي أسباب

(1) باندولفي، فيتو- تاريخ المسرح/ ج4- ت:الأب إلياس زحلاوي- دمشق- منشورات وزارة الثقافة- 1985- ص61.

(2) ديورانت، ويل- قصة الحضارة/ مج22- ص12،13.

الشحناء الطائفية، ووحدة اللغة والثقافة وما إليها من إنتاج أدبي وفني بغض النظر عن فوارق تتجلي في اللكنة أو اللهجة. ولا غرو أن تشهد الأربعة عقود الأخيرة من القرن الثامن عشر، تأسيس العلوم التي تبحث المقومات الملتئمة في خطاب «القومية- nationality»، وتبدي الأدبيات المتواترة اهتماما متزايدا بها، وبتمييزها عن حقل التفكير الفلسفي. فقد نشأ علم «السلالة والأعراق - ethnology» الذي عني بالسمات المميزة للأعراق التي شكلت المجتمعات الأوروبية، في العصور الوسطي ولاسيما ابتداء من القرن الخامس. ففي هذه الآونة اندفعت إلي أراضي أوروبا قبائل الشمال مثل «القوط»، «الوندال»، «البورجنديين»، «الفرنجة» و«السكسون» في اتجاه روما المسيحية في الجنوب، وإلي الغرب حيث انجلترا، أيرلندا، اسكتلندا وويلز، وإلي الجنوب الغربي حيث أسبانيا والبرتغال، وامتزجت بالسكان الأصلين من «الكلت- Celtic»، والغال، مما شكل جذور سكان دول أوروبا(1).

2/ 2/ 2* وأدت هجرة قبائل الشمال الجرمانية إلي جنوب وغرب أوروبا- من ناحية ثانية- إلي التفاعل مع «البيئة- environment»، وما تقتضيه من أسلوب إنتاج، وتغيير تشكيلة العادات والتقاليد، والتمييز بينها، وأدت- من ناحية ثالثة- إلي تبلور اللغات الأوروبية من التفاعل بين اللغة اللاتينية ولغة القبائل المهاجرة مع لغة سكان الأرض الأصليين. وعلي مستوٍ آخر، نشأ علم «الأساطير- Mythology»، سواء أكانت الأقدم التي انحدرت عن اليونان والرومان واحتضنته اللغات الإغريقية واللاتينية، أو القديم الذي يمكن نسبته إلي قبائل الشمال والسكان الأصليين وإن امتزجت هنا وهناك بالتاريخ غير المكتوب. ونشأ- في السياق نفسه- علم الفولكلور «حكمة الشعب - Folklore» ، الذي درس الإنتاج الأدبي من حكايات أو أمثال وأشعار شعبية، وإنتاج فني من أشكال

(1) راجع خريطة حركة هذه القبائل في مقدمة كتابنا (نبش في أوراق قديمة/ قراءة في نظريات دراما العصور الوسطي) - القاهرة- دار جزيرة الورد- 2018.

تمثيلية وطقوس، وموسيقي وأغنيات ورقصات، مما لا يزال حيا وتشهده الحياة الشعبية في قاع المدن والريف في المناسبات الاجتماعية والدينية، كما درس «العادات- Habits»، والتقاليد «traditions» والأعراف «conventions»، والثقافة المادية كما تتمثل في الملابس وسبل التزين وأدوات الإنتاج والمعيشة، وأسلوب بناء البيوت. وقد صادف كل أولئك الإهمال المتعالي أو الاحتقار، لفترات طويلة في ظل هيمنة الأرستقراطية بذائقتها وثقافتها الكلاسيكية. ولكنه في هذه الآونة يعود ليندمج بمفهوم المزاج القومي«national mode»، أو «الحس المحلي - local sense»، أو «اللون المحلي- Local color»، الذي طالما تجلي في معالجة مظهر الشخصيات والأدوات والأماكن في عصر ما، سواء في الأعمال الرومانسية أو الميلودرامية.

2/ 2/ 3*ومن الظواهر التي تجلت في الأربع عقود الأخيرة من القرن الثامن عشر، تلك الظاهرة الثقافية المحتفية بالبدائية«primitivism» أو الطبيعة والفطرة «nature»، وتدفق العاطفة الفائرة بدلا من إعمال العقل والتفكير، وكانت تنبش- في الوقت نفسه- الذاكرة الفاعلة لسكان قاع المدن، والريف حيث الرعاة والفلاحين في البراري والغيطان والأكواخ. وكانت تفتش- قصدا أو اتفاقا- عن التراث الأدبي والفني وبقاياه المطمورة في صفحات التاريخ وأعماق الوعي، وإن كان مازال حيا في حياة عامة الناس، بينما تنظر إليه الثقافة الرسمية بعين الاحتقار. وكانت هذه الظاهر تقوى في مقابل أنماط السلوك المتكلفة التي اصطنعتها الأرستقراطية ومن والاها من برجوازيين، وقد انعكس فيما اعتبروه قواعد الذائقة الكلاسيكية، للآداب والفنون. ومن التعسف عزل هذه الظاهرة عن خطاب القومية متعدد الأبعاد، ولا عن نظرية الميلودراما أو الدراما الرومانسية معا.